أبو عامر بن شهيـــــــــــد

بقلم الدكتور زكى مبارك

« ابن شهيد » اسم يطلق على عدة رجال من أعلام الأندلس، ينتسبون إلى شهيد بن عيسى ابن شهيد، مولى معاوية بن مروان بن الحكم، وكان من سبى البرابر، وقيل إنه روى (١) وأشهر بنى شهيد أبو عامر أحمد عبد الملك، وهو حفيد ابن شهيد وزير الناصر عبد الرحمن الأموى، وكان ابن شهيد الوزير معروفا بالدهاء وحسن التدبير (٢)، وكان كذلك من أبرع الشعراء، وهو الذى يقول :

ترى البدر منها طالعاً فكأنما ... يجول وشاحاها على لؤلؤ رطب
بعيدة مهوى القرط خطفة الحشى ... ومفعمة الخلخال مقعمة القلب [٣]
من اللائى لم يرحلن فوق رواحل ... ولا سرن يوماً فى ركاب ولا ركب
ولا أبرزتهن المدام لنشوة ... وشدو كما تشدو القيان على الشرب

ولد أبو عامر سنة ٣٨٢هـ، وقد ورث عن أجداده الغرام بمظاهر الصبوة والفتوة ؛ والشغف بملاعب الحسن والجمال، ولم يقدر له أن يظفر بما ظفر به أجداده من أسباب الجاه والمال والملك، لأن ثقل سمعه حجبه عن الاتصال بالملوك والوزراء (٤) ولكنه انقاد لشبابه وهواه، وأسلم زمامه لفطرته وطبعه، فجاء شعره ونثره فى أعلى درجات البيان.

كان همّ أبى عامر أن «يعيش» ولذلك أجمع من عرضوا لذكره على وصفه بالتهتك (٥).

والعيش فى عرف أبى عامر بن شهيد، هو مجموعة من الحسن والخمر والأدب؛ فالحياة عنده: وجه أصبح، أو كأس مترعة، أو رسالة أنيقة، أو قصيدة بديعة؛ فإن خلت الدنيا من بعض ذلك فهى لغو وفضول وعيش الأديب فيها عبء ثقيل.

وماظن القارىء برجل يبيت فى الكنائس لينعم بما فيها من الخمر العتيق والحسن الطريف، ثم يقول فى وصف القسيس والدير والرهبان :

---

[١] نفح الطيب ص ٣١ ج٢ طبع ليدن [٢] نفح الطيب ص ٢٤٦ ج١ [٣] القلب بالضم سوار المرأة، والمقعم بالقاف من القعم بالتحريك، وهو كما نص الفيروزابادى ميل وارتفاع فى الأليتين، والمراد هنا وصف السوار بالارتفاع لامتلاء المعاصم (٤) انظر الذخيرة ج١ ص ١٢٣ [٥] وصفه صاحب نفح الطيب بالتهتك فى بطالته ج١ ص ٣١٩ وتحدث عنه صاحب الذخيرة فقال : أبو عامر بن شهيد فتى الطرائف ــ كان ــ بقرطبة فى رقته وبراعة ظرفه خليعها المتهتك فى بطالته وأعجب الناس تفاوتاً بين قوله وفعله، وأحكمهم فى هوى نفسه، وأهتكهم لعرضه، وأجرأهم على خالقه ج١ ص ٢٦

ولرب حان قد شمت بديره خمر الصبا مزجت بصرف عصيره
فى فتية جعلوا السرور شعارهم متصاغرين تخشعاً لكبيره
والقس مما شاء طول مقامنا يدعو بعود حولنا بزبوره
يهدى لنا بالراح كل مخفر كالخشف خفره النماح خفيره[١]
يتناول الظرفاء فيه وشربهم لسلافه والآكل من خنزيره[٢]

أو يتعرض لجارية من أهل قرطبة ذهبت للصلاة (وأمامها طفل لها كأنه غصن آس ، و ظبى يمرح فى كناس) فتنصرف مروعة خشية أن يفضحها بشعره ؛ فيتبعها ويقول:

وناظرة تحت طى القناع دعاها إلى الله بالخير داعى
سمت خفية تبتغى منزلا لوصل التبتل والانقطاع
فجاءت تهادى كمثل الرءوم ٣ تناغى غزالا بروض اليفاع[٤]
وجالت بموضعنا جولة فحل الربيع بتلك البقاع
أتتنا تبختر فى مشيها فخلت بواد كثير السباع
وريعت حذاراً على طفلها فنـاديت ياهذه لاتراعى
غزالك تفرق منه الليوث وتنصاع منه كماة المصاع[٥]
فولت ولامسك فى ذيلها على الأرض خط كذيل الشجاع[٦]

وكان مع تهتكه كريم النفس محمود الخلال حتى لتراه أشرف الناس إذ يقول :

إن الكريم إذا نالته مخمصة أبدى إلى الناس شبعاً وهو طيان[٧]
يخفى الضلوع على مثل اللظى حرقا والوجه غمر بماء البشر ملآن

أو حين يقول :

ألمت بالحب (٨) حتى لو دنا أجلى لما وجدت لطعم الموت من ألم
كلا الندى والهوى قدماً ولعت به(٩) ويلى من الحب أو ويلى من الكرم

وذكر ابن حيان أن أباعامر (كان من أصح الناس رأياً لمن استشاره، وأضلهم عنه فى ذاته، وأشدهم جناية على حاله ونصابه ، وكان له فى الكرم والجود انهماك مع شرب وبطالة حتى شارف

---

[١] المخفر: الممنوع ، والخشف بالتثليث ولد الظبي [٢] راجع نفح الطيب ص ٣٤٥ ج ١ (٣) الرءوم: الظبية الالوف [٤] واليفاع ما ارتفع من الارض (٥) الكماة جمع كمى وهو الشجاع ، والمصاع الضرب بالسيف [٦] الشجاع: الذكر من الحيات (٧) طيان : من الطوى وهو الجوع . وفي رواية أخرى ريا وهو ظمآن. انظر هامش النفح ص ٤١٠ ج ١ [٨] وفى رواية أخرى « كلفت بالحب » [٩] وفى رواية أخرى — وذادنى كرمى عمن ولهت به وهى أفصح من الرواية السالفة «وعاقنى كرمى »

الاملاق) [١]. ومن العجيب فى تشابه الحظوظ، أن النقاد الفرنسيين يصفون (لافونتين) بهذا الوصف :فيذكرون (أنه كان من أصح الناس رأيا لمن استشاره، وأضلهم عنه فى ذاته[٢])وما أكثر ما يتشابه رجال الأدب فى سوء الحال !

قلت: إن أبا عامر بن شهيد كان يحب الحياة حباً شديداً، وكان يرى العيش كل العيش فى معاقرة الجمال والصهباء ؛ فلنذكر الآن أنه كان لذلك من أشد الناس إحساساً بكراهة الموت ، وقد بلغ من تفزعه أن شعر معاصروه جميعاً بألمه وامتعاضه وتهالكه على التشبث بأذيال الحياة.

قال ابن بسام: « ولما طال بأبى عامر ألمه، وتزايد سقمه: وغلب عليه الفالج الذى عرض له فى مستهل ذى القعدة سنة خمس وعشرين وأربعمائة،لم يعد منه حركة ولا تقلب،وكان يمشى إلى حاجته على عصا مرة، واعتماداً على إنسان مرة ، إلى قبل وفاته بعشرين يوماً فانه صار حجراً لا يبرح ولا يتقلب،ولا يحتمل أن يحرك لعظيم الأوجاع مع ضغط الأنفاس وعدم الصبر حتى هم بقتل نفسه» [٣]

فلنتصور قسوة المرض التى تحمل رجلا كابن شهيد على التفكير فى الانتحار ، ولنقرأ محزونين قوله فى ذلك :

أنوح على نفسى وأندب نبلها ... إذا أنا فى الضراء أزمعت قتلها
رضيت قضاء الله فى كل حالة ... على وأحكاماً تيقنت عدلها
أظل قعيد الداء تجنبنى العصا ... على ضعف ساق أوهن السقم رجلها
ألا رب خصم قد كفيت وكربة ... كشفت ودارکنت فى الحل وبلها
ورب قريض كالجريض[٤] بعثته ... إلى خطبة لا ينكر الجمع فصلها
فمن مبلغ الفتيان أن أخاهم ... أخو فتكة شنعاء ما كان شكلها
عليكم سلام من فتى عضه الردى ... فلم ينس عيناً ثبتت فيه نبلها
يبين وكف الموت يخلع نفسه ... وداخلها حب يهون ثكلها

ولم يفت ابن شهيد أن يظل على عنف المرض ظريف الحس والروح ؛فقد حدث أبو بكر الصحفى، قال :

دخلت يوما على أبى عامر بن شهيد، وقد ابتدأت به علته التى مات منها، فتأنس بى وجرى الحديث إلى أن شكوت له تجنى بعض إخوانى على وتقاره عنى ، فقال: سأسعى لاصلاح ذات البين ، فاتفق لقائى لذلك المتجنى مع بعض إخوانى وأعزهم على ، فلما رآنى موليا عن ذلك الصديق أنكر على وسأل عن السبب للوجب فأخبره وزادا فى مشيهما حتى لحقانى ؛ وعزم

---

[١] الذخيرة جـ١ ص٢٩٤ [٢] استطاع La Fontaine أن يكون أحكم الناس، وأن يفرض حكمته فى شعره على الفرنسيين من شباب وكهول ، وأن يظل فى طليعة الحكماء على اختلاف الاجيال ، ولكنه عجز عن الظفر باستقامة الخلق فى حياته الشخصية فلم يكن لزوجته ولا لولده من رعايته نصيب. وسبحان من تفرد بالكمال !
٣ الذخيرة جـ١ ص١٦٥ [٤] الجريض بالجيم البريق ، وهى فى نسخة الذخيرة بالخاء المهملة.

على فى تكليم صاحبى ، وتعاتبنا عتاباً أرق من الهوى، وأشهى من الماء على الظما ، حتى جئنا دار أبى عامر ، فلما رآنا جميعاً ضحك وقال : من كان تولى إصلاح ما سررنا بفساده ؟ قلنا: قد كان ما كان ! فأطرق ملياً ثم أنشد :

من لا أسمى ولا أبوح به أصلح بينى وبين من أهوى
أرسلت من كبدى الهوى فدرى كيف تداوى مواضع البلوى
ولى حقوق فى الحب ظاهرة لكن إلفى يعدها دعوى (١)

وحدث المصحفى أيضاً قال : دخلت عليه يوماً فى تلك العلة ومعى غلام وسيم من إخواننا، وكان أبو عامر قبل ذلك يحب ممازحته فينافره ، حتى خاطب أبو عامر بعض إخوانه بشعر مسه فيه بطرف لسانه، فقال له ذلك الغلام: هجوتنى يا أبا عامر دون أن تتثبت فى أمرى، ولا تعلم من سرى مايوجب ذلك ؛ فقال : على تكفيره بما يمحوه من القراطيس والصدور ، وكان ذلك أثر صلاة العشاء الأولى ، فطفنا بالجامع ثم انصرفنا إليه فأنشدنا :

ألا بأبى زائر فى العتم بوجه يجلى سواد الظلم
تكتم بالليل فى ظله وهل يمكن الصبح أن يكتتم
أتى يستجير إلينا به كما جاور البان رطب العنم(٢)

وقد أخذ ابن شهيد يخاطب بالشعر أحبابه وأصدقاءه خطاب الوداع فأرسل إلى أبى محمد ابن حزم هذه الأبيات :

ولما رأيت العيش ولى برأسه وأيقنت أن الموت لاشك لاحق
تمنيت أنى ساكن فى عباءة بأعلى مهب الريح فى رأس شاهق
خليلى من ذاق المنية مرة فقد ذقتها خمسين قولة صادق
كأنى وقد حان ارتحالى ولم أفز قدعاً من الدنيا بلمحة بارق
فمن بلغ عنى ابن حزم وكان لى يداً فى ملماتى وعند مضايق
عليك سلام الله إنى مفارق وحسبك زاداً من حبيب مفارق
فلا تنس تأبينى إذا ما فقدتنى وتذكار أيامى وفضل خلائقى(٣)

وكان ابن شهيد يشعر أنه أهل لأن يبكى حين يموت ، ويقول فى ذلك :

سقى الله فتيانا كأن وجوههم وجوه مصابيح النجوم الزواهر
إذا ذكرونى والثرى فوق أعظمى بكوا بعيون كالسحاب المواطر
يقولون: قد أودى أبو عامر العلى أقلوا فقدماً مات أبناء عامر

---

[١] الذخيرة جـ١ ص١٦٣ [٢] القصيدة بقية طويلة يجدها القارىء في الذخيرة جـ١ص١٦٤ [٣] انظر جواب ابن حزم على هذه الابيات في ص ١٦٦ جـ١ من الذخيرة .

هو الموت لم يصرف بأجراس خاطب[١] بليغ ولم يعطف بأنفاس شاعر
ولم يجتنب للبطش مهجة قادر قوى ولا للضعف مهجة صابر
يحل عرى الجبار فى دار ملكه ويهفو بنفس الشارب المتساكر
وليس عجيباً أن تدانت منيتى يصدق فيها أولى أمر آخرى
ولكن عجيب أن بين جوانحى هوى كشرار الجمرة المتطاير
يحركنى والموت يجفر همتى (٢) ويهتاجنى والنفس عند حناجرى

وهذا حقاً عجيب ، فان ابن شهيد ظل يتلهف فى أيام علته المهلكة إلى محبوب له اسمه عمرو، وكان حبه له مشهوراً يعرفه القريب والبعيد ؛ ولننظر كيف يتوجع وهو يخاطبه خطاب المفارق المشتاق :

اقرا السلام على الأصحاب أجمعهم وخص عمراً بأزكى نور تسليم
وقل له يا أعز الناس كلهم شخصاً على وأولاهم بتكريم
الله جارك من ذى منعة ظفرت منه الليالى بألف غير مفلوم
ما كان حبك إلا صوب غادية طيباً وحاشا بحبى فيك للوم
إن شاء صرف الردى تقديم أطوعنا فقد رضيت حماك الله تقديمى
عشنا رفيقين فى بر الهوى زمناً حتى زقا بنوانا طائر الشوم
فشتتت نوب الأيام إلفتنا قسراً ولم يغنها طى وتنجيمى

وحسب القارىء أن يعلم أن آخر شعر قاله ابن شهيد هو هذه الأبيات ، وفيها يودع إخوانه ومحبوبه آخر وداع :

أستودع الله إخوانى وعشرتهم وكل خرق إلى العلياء سبّاق
وفتية كنجوم الغرب نيرهم يهدى وصليهمو يودى بأحراق
وكوكباً لى منهم كان مغربه قلبى ومشرقه ما بين أطواق
الله يعلم أنى ما أفارقه إلا وفى الصدر منى حر مشتاق
فان أعش فلعل الدهر يجمعنا وإن أمت فسيسقيه الردى الساق
لا ضيع الله إلا من يضيعه ومن تخلق فيه غير أخلاق!
قد كان بردى إذا ما مسنى كلف لايثلم الحب آدابى وأعراق
إنى لأرمقه والموت يضغطنى فأقتضى فرجة ترتد أرماق

ثم أوصى أن يدفن بجنب صديقه أبى الوليد الرجالى، ويكتب على قبره فى لوح رخام هذه الكلمة:

(البقية على الصفحة رقم ٨٤)

---

[١] الخاطب : الخطيب ، وهى لفظة قليلة الاستعمال وأذكر أنى رأيتها فى كلام الجاحظ ؛ وهى أكثر موازنة لكلمة كاتب وكلمة شاعر (٢) يجفر : يقطع